ساعات في هياكل الشعراء — ٣

الياس فياض

وقصيدة النجوم

ليوسف البعيني

مضى خمسة أعوام وأزيد على وفاة الشاعر الرقيق الحساس الياس فيّاض ذلك البلبل الفريد الذي فتن بأناشيده أبناء العربية على السواء . وكنت طوال هذه الاعوام أمنّي النفس بكتابة كلمة ضافية عنهُ لا لشيء بل قدراً لروحه الكبيرة وإنصافاً للشعر العربي الذي أحبتهُ وآثرتهُ على الآداب الاخرى لما في اوزانهِ من رنين ، ولما في الفاظهِ من حبٍّ لم يخبُ نورهُ ولم تزمّده جراتهُ ! !

أما أدلّتي على ذلك فهي تلك المقاطع الساحرة التي ردّدها تحت سماء الشرق المقمرة عُمَرُ بن أبي ربيعة ومجنون ليلى وغيرهما من شعراء الحبّ والغرام . . . وقد طوت أشعارهم الحقب الخوالي طافيةً كالاحلام فوق أمواج الدهور دون ان يفقدها تقادم العهد تلك النشوة المسكرة ، وذلك الدبيب المستحبّ

على انني لا احاول في هذه الكلمة الموجزة أن أعطي للقارىء صورةً شفّافة عن الياس فياض ، ولا ان أجهد نفسي بتبيين اسرار شعره السائغ اللذيذ . . . كلاّ فأنا لا أقصد هذا ولا ذاك . . . بَيْدَ اني أريد التحدث عن قصيدة « النجوم » التي كانت ولا تزال موضوع إعجابٍ وفتنة لدى ادباء العربية في كلّ مكان !

وقبل ان ابدأ بحديثي أُحبُّ ان اطلع القارىء على إني أسرف اكثر أيامي ولياليّ بين الكتب . فلمطالعة الكتب عندي لذّة لا تعادلها لذّة في الحياة . . . ولذلك توفرت لديّ ثروة أحاديث ادبية طريفة ، ثروةٌ لا حدود لبحورها ولا نخوم . . . وعلى هذه القاعدة اسستُ واقفاً على سير الادباء ، ليس عند العرب فحسب ، بل عند كثير من الامم الغربية التي تتذوّقُ الادب الرفيع ، وتقدّس الفنّ والجمال ! !

ولطالما عثرتُ في مطالعاتي على مآخذ ادبيّة جمّة ، مآخذ شعرية ونثرية ، فكنت امضي في سبيلي وهو سبيل الاديب الذي لا يطلب من مطالعاته الاّ اللذّة الشافية وإشباع ميوله وعواطفه بروحانيّة علوية سامية . وظلّ عهدي كذلك حتى وقع بين يديّ ديوان — الياس فيّاض — وهو من أفضل الدواوين الشعرية التي اصدرتها المطابعُ العربية في مستهل هذا الجيل لكونه مطبوعاً بطابع يختلف عن غيره ويتهادى في موكب من الجدّة والانسجام. وقد حُرِمت من هاتين الميزتين أغلب دواوين الشعر في تلك الايام

قرأت الديوان فأسكرتني قصائده العذبة وعلى الاخص قصيدة — النجوم — تلك القصيدة الرائعة المؤثرة التي قلّدها جمهور من كبار شعراء العربية في مصر ولبنان . وهؤلاء لم يقلدوها الاّ لما تحمل في ابياتها من حرقة ، هي حرقة الشاعر الظامىء المتألم الذي يتعانق فجر الحياة ومساؤها في ظلال اجفانه ! !

وهذه هي القصيدة :

قُلتُ للنيّرات ذاتَ مساء أتُرى أنتِ مثلنا في شقاء
ساهراتٌ الجفونِ — هل لفراقٍ خافقاتٌ الضلوعِ — هل للقاء
هائماتٌ مع المجرّة نجرِ نَ الى غير غايةٍ او رجاء
مثلَ سربٍ من القطا ظامئاتٍ حول ماءٍ يُمنعنَ وردَ الماء
أو عذارى من حولِ لبنى جوارى في صلاةٍ ما تنقضي ودُعاء
إنّ في لحظكِ الشجيّ حنيناً نافذاً سهمهُ الى احشائي
وأرى نورك الضئيل كدمعٍ سائلٍ من محاجرٍ بيضاء

***

أنورٌ كئيبةٌ ام جراحٌ أنتِ في اللانهاية السوداء
أنتِ يا جدّة الخلائق ام الد هر يا ربة الهدى والضياء
أنتِ تبكين يا نجوم ؟ أجابتْ نحن في عزلةٍ بهذا الفضاء
بيننا البحر من قديم فلا يغرّ كَ منا تقارب الاضواء
كلّ نجمٍ منا يعيش بعيداً عن أخيهِ في وحشةٍ وجفاء
محرقاً نفسهُ بغير انتفاعٍ ذاهباً نوره سدًى في السماء

***

قد فهمتُ الذي تقولين يا شهـ ـب فأنتِ انفس الشعراء
هكذا نورُها يضيع بأفقٍ نزلتْ منهُ منزلَ الغرباء

لا ترى الانس القريبُ منهـا ما بها من توقد وذكاء
فتثير الظـــلام حيناً وتمضي في ثياب الخـــلود نحو الفناء

***

ولكنّني لم أكد استمدعها حتى علمتُ بأنها مأخوذة عن الشاعر الفرنسي المشهور — سولّي برودومّ — وأحببتُ ان انبه المرحوم الياس فياض الى هذا المأخذ الصريح فكتبتُ اليه رسالة لطيفة طويتها على إعجابي به وعلى تبيان الحقيقة . وعلى الرغم من تقادم العهد فأنا لا أزال اذكر من تلك الرسالة جملة مقتضبة فيها جمالٌ وإغراءٌ وهي : —

اخي الحبيب الياس ،

أعجبتني ريشتُك الساحرة من رياض الجنّة ومعطّرةٌ بأنفاس الخلود . . . أم قبستها من جنب الانبياء حتى جاءت تقطّر في جراحات القلوب ما تقطّرُهُ ، وتسكب على الاجفان الذابلة ما تسكبهُ ؟ فللهِ درّك من شاعرٍ حنون اذا ما اهاب بأوتار قيثارهِ مشت رعشةٌ برياض الشعر وبلابله . . . .

بعثت اليه بتلك الرسالة نازفاً في مراشفها عاطفةً من عواطفي المرتعشة كزنبقة الغور عندما يلاعبها نسيم الاودية وهي اول رسالة بعثتُ بها الى شاعرٍ يلمعُ اسمهُ في سماء الادب اذ كنتُ انقل خطواتي اياماً بحيرة واضطراب كأني الفرخُ يمّ للطيران من الخوصه واهياً ضعيفاً على اني ما انتظرت ان يجيبني مبيناً لي الحقيقة . ولكنهُ اجابني رحمهُ الله بكتابٍ ضافرٍ يمّ على أدب سامٍ وروح معذبة تزهقها اشباح الشاعرية . وهذا الكتاب لا ازال احتفظ به كأثر غال له قيمته المقدسة

اليك بعضه :

أخي !

أي لغم موجعٍ مؤثر هو هذا النغمُ الذي جئتَ تسمعني اياه ؟ لقد أيقظ في صدري حلماً هامداً كنتُ أحسبني رفدت معه يوم ودعت الشعر وقبعت صامتاً الى ان يسمح الله بغيب شمس الحياة

تسألني يا اخي عن قصيدتي — النجوم — وتلح عليَّ ببيان حقيقة أمرها . لقد قلت لي انها وقعت من نفسك في الغربة موقعاً الطف منها وهي في الفرنسية . لماذا لم تكتف بهذه اللذة قانعاً بها وحدها ؟ أما وانت تريد ان تعرف اسرارها فما عليَّ اذاً الاّ ان احدّثك بإسهاب ، وهذا الحديث يرهقني كثيراً لكوني مريضاً اليوم بداء قديم سوف لا يبارحني إلاّ وحياتي في قبضته !

من عشرين عاماً تقريباً كنت أدرس الحقوق في باريس — باريس المدينة الشعرية الفاتنة — فعرفت فيها فتاة جميلة شقراء على جانب كبير من الثقافة والتوسع في الفنون. وكثيراً ما أنشدتني الرائع من الشعر الفرنسي. ومن بين ما أنشدتني اياه، وكان لهُ تأثيراً عميق على عواطفي وافكاري، قصيدة — سولي برودوم — المسماة (الجرَّة) فقد رسخت هذه القصيدة في فكري رسوخاً امتزج بقلبي وروحي

وبعد مضي زمن طويل على هذا الحادث عدت الى الاسكندرية. وفي ذات ليلة اشتدَّت عليَّ آلامي النفسية فرحت أبحث عمَّا يعزّيني. ولما لم القَ في الاسكندرية من أشُدُّ مصابي بكيت متألماً !! ولم يكن امامي الا النجوم اشكو اليها كآبتي. فقابلت بين احتراقها في الظلام وبين احتراق نفسي الحزينة فجاش الشعر في قلبي . . . ولم يطلع الفجر حتى كنت اتم آخر بيت من قصيدة النجوم

هكذا نظمت قصيدة (النجوم) وأنا أحسب انها من توليدي. ويمكنك الاعتقاد يا يوسف اني لم أكن انتظر ان أحيء على أبيات بكاملها من قصيدة الشاعر الفرنسي المجدَّد، وان نبرة تلك القناة الحسناء ما زالت تتردَّد في مخيلتي . . . ولذلك لم أقل في ديواني انها مأخوذة !

(أخوك الياس)

***

بعد شهر على تسلُّمي هذه الرسالة قرأت في جريدة كانت تصدر في بيروت تهجماً على الياس فيَّاض من قلم أحد أدعياء الادب والفن يعيب فيه قصيدة النجوم ويتهم الشاعر الحسَّاس بالسرقة والتقليد. لقد أذهلني ذلك التهجُّم وتلك الإغارة لكوني واثقاً بأن معارف الناقد المستتر وراء امضاء مستعار هي معارف لا تتعدَّى البسيط من الادب والنقد والمضحك ان الناقد أخذ الخبر عن المرحوم الياس ذاته ثم رفع عقيرته بالسباب والشتائم، وهي غالباً ما تكون شيمة الاديب المقصر العاري من الفن والعبقرية

ولكن الامر الذي يدعو الى الدهشة والعجب هو ان اديبنا الكبير الاستاذ امين الريحاني ترجم قصيدة النجوم الى اللغة الانجليزية دون ان ينتبه الى شيء . . . وقد لاقت ترجمة صديقي فيلسوف الفريكة استحساناً عاماً من ابناء هذه اللغة. وذلك لان الياس فياض سكب عليها شعوره فراحت تتراءى بين انامل المترجم العبقري في حلتين ساحرتين، حلة الشاعر اللبناني الرقيق، وحلة الاديب الفرنسي الظريف — سولي برودوم — الذي نفح الشعر العالمي بقصائد هي تماثيل خالدة في هياكل الارواح

الى ذكرى

الدكتور صروف

كان حضرة صاحب السعادة أسعد باسيلي باشا قد تبرّع بمائة جنيه للمقتطف لتوزعها جوائز أدبية على الذين يفوزون في مباراة تقترح موضوعها ، احتفاء بذكرى الدكتور صروف ، واجتمعت لجنة التحكيم في يناير الماضي وأصدرت قرارها (المنشور في مقتطف فبراير صفحة ٢٤٤) ورغبت فيه الى الواهب ان يبقي هذا المبلغ من المال رهن عمل أدبي آخر رأت اللجنة ان يكون على غير أساس المباراة بأن يعهد الى كتاب مختصين بكتابة فصول في موضوعات مختلفة وان يوزّع عليهم هذا المبلغ مكافأة لهم ، ثم تقوم ادارة المقتطف بطبع هذه الفصول في كتاب تهديه الى مشتركيها باسم سعادة الواهب لذكرى الدكتور يعقوب صروف» . ويسر ادارة المقتطف ان تذيع أنها تلقت من سعادة أسعد باسيلي باشا انه متبط بالنزول على رأي اللجنة . وقد شرعت الادارة في اعداد المعدات لهذه الفصول بارشاد حضرات اعضاء اللجنة وستوزع مجموعها هدية على حضرات المشتركين

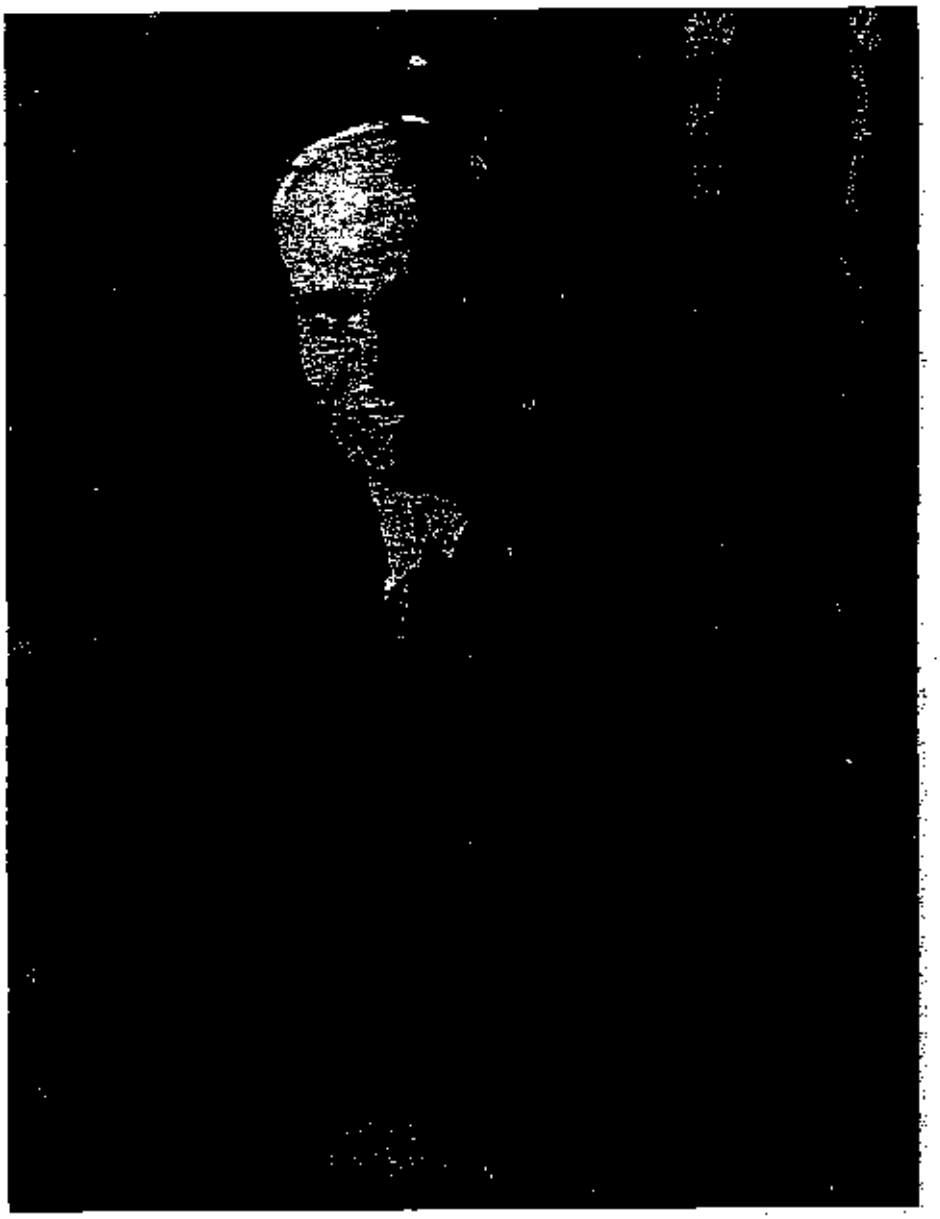

أسعد باسيلي باشا